أسرار القصر البلاغية بطريق "إنما" في الجزء الأول من سورة البقرة

محمد شوقي بن أرشد

عميد كلية اللغة العربية

جامعة السلطان عبد الحليم معظم شاه الإسلامية العالمية

syauqi@unishams.edu.my

ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى بيان طريق القصر بِـ"إنما" مع تحليلها تحليلًا تفسيريًّا وبلاغيًّا في الجزء الأول من سورة البقرة. وقد اتَّبع الباحثُ المنهجَ الاستقرائي التحليلي، وقد خلُص الباحث إلى أنَّ الإعجاز البلاغي لأسلوب القصر إعجاز عظيم لا يكاد يُحصر. ولا يستلزم وجود أداة من أدوات القصر تؤدي هذا الدور بل أحيانًا يمتنع القصر بالرغم من وجود أدواته.

الكلمات المفتاحية: القصر، الأسلوب، الإعجاز، قوة التأثير.

Abstract

This research aims to describe the way of specializing by "إنما" in the analysis, description of Al-Quran and rhetoric or Balaghah; in the first part of Surah Al-Baqarah. The research, having followed the inductive analysis approach. Researcher concluded that the rhetorical style of 'specialization' is a great miracle and it is just limitless. Not necessarily, the existence of one of its 'specialization' means it plays this role, but sometimes 'specialization' does not exist in these verses despite their characteristics.

Keywords: *Specialization, method, miracle, strong effect.*

المقدمة

إن علم البلاغة ضروريٌّ لكل مَن يدرس علوم اللغة العربية من القرآن الكريم، والحديث النبويّ، والشعر، والنثر الأدبي ... الخ؛ لأنه لا يستطيع الإنسان أن يصل إلى المراد أو المقصود المعنوي أو الباطني من هذه النصوص دون معرفة علوم البلاغة من معانيها، وبيانها، وبديعها. ولذا فإن دراسة لغة القرآن من أشرف العلوم، لأنها دراسة كلام الله سبحانه وتعالى. ومن أهم الموضوعات في علوم البلاغة الذي يدرس كلام الله تعالى دراسةً دقيقةً أسلوب القصر بطريق "إنما".

المبحث الأول: تعريف القصر

المطلب الأول: القصر لغةً

قال ابن منظور: (كلمة "القصر" لها عدة معانٍ، منها: القَصْرُ والقِصَرُ في كل شيء: خلاف الطول؛ أنشد ابن الأعرابي : # عادت مَحُورَتُه إلى قَصْرِ #. قال: معناه إلى قِصَر، وهما لغتان: وقَصُرَ الشيءُ، بالضم، يَقْصُرُ قِصَرًا: خلاف طال؛ وقَصَرْتُ من الصلاة أَقْصُرُ قَصرًا. والقصير خلاف الطويل. والقَصْرُ خلاف المدّ، والفعل كالفعل والمصدر كالمصدر. والقَصر الغاية.

المطلب الثاني: القصر اصطلاحًا

اطَّلع الباحث على كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، فلم يجد بابًا سمّاه عبد القاهر بنفسه "باب القصر والاختصاص" إلا بعد أن بوَّبها دكتور محمود محمد شاكر كمُعلِّقٍ على الكتاب. بل قال عبد القاهر: فصلٌ في مسائل "إنما". ولذلك، يرى الباحث أن عبد القاهر لم يفسر ولم يحدد معنى القصر اصطلاحًا، وإنما تحدَّث عن مسائله وطرقه بصورة عامة.

قال سعد الدين التفتازاني: (القصر في الاصطلاح: تخصيص شيء بشيء بطريق معهود)[1]. وأما عبد المتعال الصعيدي في كتابه بغية الإيضاح فيقول: (القصر في الاصطلاح: تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص، والشيء الأول هو المقصور، والثاني هو المقصور عليه، والطريق

[1]) انظر :كتاب المطوّل في شرح تلخيص المفتاح، المكتبة الأزهرية للتراث، سنة ١٣٣٠هـ ص ٢٠٤

المخصوص هو أدوات القصر)[٢]. وقد وافقت الدكتورة إنعام نوّال عكّاوي هذا التعريف وقالت: (القصر: تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص، وهو الحبس والإلزام.)[٣]

ومن هنا، لاحظ الباحث أن التفتازاني يقول: (بطريق معهود)، وأما عبد المتعال الصعيدي فيقول: (بطريق مخصوص). ولا يَظُنُّ الباحث أنّ هناك فرقًا بين التعبيرين، بل يؤيد بعضهما بعضًا. والمُهم هو قولهم (تخصيص شيء بشيء) يعني جعل الشيء خاصًا بالشيء، أو بعبارة أخرى جعل شيء مقصورًا على شيء بحيث لا يتعداه إلى غيره. والمراد بتخصيص الشيء بالشيء إثبات أحدهما للآخر، ونفيه عن غيره، وبهذا تكون جملة القصر في قوة جملتين، ويكون القصر طريقًا من طُرق الإيجاز، ويكون الإيجاز من أهم أغراضه.

والملاحظة التي يصل إليها الباحث من هذا العرض المختصر أنه يتفق هنا مع الدكتور عبده عبد العزيز قلقيلة في أنّ المادة اللغوية للقصر وثيقة الصلة بالمضمون الاصطلاحي حتى يكاد المعنى اللغوي حين نتأمله يكشف لنا جوانب المعنى الاصطلاحي، يقول الدكتور عبده قلقيلة: (لا يبعد المعنى الاصطلاحي للقصر من المعنى اللغوي له)[٤]

المبحث الثاني : طريق القصر بإنما

إن نقطة الانطلاق في هذا المبحث هي قول عبد القاهر الجرجاني في تعليقه على قول الفرزدق: (فليس يخلو هذا الكلام من أن يكون موجَبًا أو منفيًّا. فلو كان المراد به الإيجاب لم يستقم، ألا ترى أنك لا تقول: "يدافع أنا" و"لا يقاتل أنا"، وإنما تقول: "أُدافع" و"أُقاتل" إلا أنَّ

[٢]) انظر : بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، ط ١٧، سنة ٢٠٠٥م، ص ٢٢١

[٣]) انظر : المعجم المفصل في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، ط ٢، سنة ١٩٩٦م ، ص ٦٢١

[٤]) انظر : البلاغة الاصطلاحية، دار الفكر العربي، ط ٣، سنة ١٩٩٢م، ص ٢٣٩

المعنى لَمَّا كان : "ما يُدافع إلاَّ أنا"، فصلتَ الضمير كما تفصله مع النفي إذا ألحقتَ معه "إلاَّ" حَملاً على المعنى.)[٥]

فيتضح للباحث أنَّ "إنَّما" مكوَّنة مِن "إنَّ" و"ما". فتدخل "ما" على "إنَّ" وتُبطل عملها[٦] لتُثبت الحكم للمذكور وتصرفه عن غيره. قال الراغب الأصفهاني عن "إنَّ" : (...وإذا أُدخل عليه "ما" يُبطل عملَه ويقتضي إثباتَ الحكم للمذكور وصَرْفَه عمَّا عداه نحو: ((إنما المشركون نجس)) [٧] ، تنبيهًا على أنّ النجاسة التامَّة هي حاصلةٌ للمُختص بالشرك.

وقال عبد المتعال الصعيدي: (والقصر بإنّما يكون فيها مع كسر همزتها وفتحها، وقد اجتمعا في قوله تعالى: ((قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ))[٨] ، فالمعنى في الأول على قصره على البشرية، والمعنى في الثاني على قصر الألوهية على التوحيد، وقيل إنّ المفتوحةَ لا تفيد القصر).[٩] وقد ذكر بسيوني عبد الفتاح فيود أن من القائلين بذلك الزمخشري، والبَيضاوي والتنوخي. فهم يرون أن "أنّما" تفيد القصر. ولكن بسيوني يرى خلاف ذلك حيث يقول عن هذه الآية: (والذي أراه – والله أعلم – أن "ما" في " أنَّما" زائدة للتأكيد.)[١٠]

[٥]) انظر : دلائل الإعجاز، التعليق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط ٥، سنة ٢٠٠٤م، ص ٣٢٨

[٦]) في نصب الاسم المقصور لتثبيت حكم القصر عليه.

[٧]) سورة التوبة: ٢٨

[٨]) سورة فصّلت: ٦

[٩]) انظر :البلاغة العالية (علم المعاني)، قدَّم له وراجعه وأعدَّ فهارسه: دكتور عبد القادر حسين، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، ط ٢، سنة ١٩٩١م ، ص ٥٢

[١٠]) انظر : دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، مؤسسة المختار ودار المعالم الثقافية، ط ١، سنة ١٩٩٨، جـ ٢، ص ٣٩

والباحث يتَّفق معه في ذلك على تقدير: "يُوحَى إِلَيَّ أَنَّ إلهَكُم إله واحد". ولكن الزمخشري يرى أن الدلالة على أن الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على إفراد الله بالوحدانية. يقول الزمخشري في الآية: ((قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُم مُسْلِمُون))[١١]: (..."إنما" لقصر الحكم على شيء أو لقصر الشيء على حكم كقولك: إنما زيد قائم، وإنما يقوم زيد. وقد اجتمع المثالان في هذه الآية لأن "إنما يوحى إليَّ" مع فاعله بمنزلة "إنما يقوم زيد". و"أنما إلهكم إله واحد" بمنزلة "أنما زيد قائم". وفائدة اجتماعهما الدلالة على أن الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على استئثار الله بالوحدانية).[١٢] وجدير بالذكر، أن الباحث قد اطَّلع على سورة البقرة كلِّها ، فلم يجد كلمة "أنّما" بفتح الهمزة فيها وهي أطول سورة في القرآن ولو مرة ! وهذه النتيجة صدرت من خلال قراءة حفص عن عاصم دون القراءات الأخرى.

وقد أشار عبد المتعال الصعيدي إلى أن عبد القاهر يرى أن "إنّما" لا تُستعمل في الكلام البليغ إلا في قصر القلب. والحق أنها تستعمل فيه وفي غيره، ومن قصر الإفراد فيها قوله تعالى: ((إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ))[١٣] ، إذ ليس هناك مَن يعتقد عدمَ استحقاق الفقراء ونحوهم الصدقة؛ فلا يكون القصرُ في ذلك قصر قلب.[١٤] ولعل من الواضح عند الباحث أن الدكتور محمد محمد أبو موسى أيضًا

[١١]) سورة الأنبياء: ١٠٨

[١٢]) دكتور تامر سلوم، في مجلة التراث العربي – دمشق، الموضوع: ظاهرة "القصر" في كشاف الزمخشري، ع ٦٤، سنة ١٩٩٦م، ص ١١١

[١٣]) سورة التوبة: ٦٠

[١٤]) انظر : بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، ط ١٧، سنة ٢٠٠٥م، ص ٢٣٠-٢٣١

قد أيَّد ما قاله الصعيدي عن وظيفة "إنما" حيث إنها تستخدم في جميع أنواع القصر وليست محدَّدة في نوع معين[١٥]. أين توثيق الدكتور أبو موسى ؟

المبحث الثالث: طريق القصر بإنما في الجزء الأول من سورة البقرة

(١) قول الله تعالى: ((وَإِذَا قِيْلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ))

موضع القصر: ((إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ))

وقد ضرب الزمخشري قبل تفسير الآية (إنما نحن مصلحون) لنا مثالاً لوظيفة "إنما" في قصر الحكم على شيء، كقولك: "إنما ينطلق[١٦] زيد"، وفي قصر الشيء على حكم كقولك: "إنما زيد كاتب"، ثم قال: (ومعنى "إنما نحن مصلحون": أنّ صفة المصلحين خَلُصت لهم وتَمَحَّضَت من غير شائبة.)[١٧]. يقصد الزمخشري أن هؤلاء المنافقين يجعلون صفات المصلحين في أعمالهم الطيبة وأخلاقهم الحميدة خالصة لهم فكأنهم يقصرون هذه الصفات على أنفسهم فهذا قصر من نوع قصر الصفة على الموصوف. وهذا مفهوم كلام الزمخشري. أما القرطبي فقد ذكر أنَّ ابن عباس وغيره يقولون: وإنما قالوا ذلك على ظنِّهم لأنَّ إفسادهم عندهم إصلاح أي أنَّ مُمالأتنا للكفار إنما نريد بها الإصلاح بينهم وبين المؤمنين.[١٨]

ويزيد الباحث أنَّ المنافقين ليس عندهم معيار أو منهج صحيح في بيان الإصلاح، ولا في بيان الإفساد، حتى يعرفوا الفرق بينهما، وذلك لمرض قلوبهم. وقد بيَّن ابن كثير أن هذه الآية الكريمة هي حكاية عن اليهود الذين إذا قيل لهم: لا تعصُوا في الأرض، قالوا: إنما نحن على الهدى مصلِحون. وقال: (فهُم قد ادَّعوا أن

[١٥]) دلالات التراكيب، دراسة بلاغية، مكتبة وهبة، ٢٠٠٨م، ص ١٤٦

[١٦]) هكذا ورد في النص. وقد ورد "ينطق" في نسخة أخرى من الناشر : دار الكتاب العربي – بيروت

[١٧]) الزمخشري، جـ ١، ص ١٨٠

[١٨]) انظر : الجامع لأحكام القرآن، المكتبة التوفيقية، جـ ١، ص ٢٠٩

إصلاحهم أمرٌ جليٌّ لا شكَّ فيه. وفي الحقيقة، إن هذا الذي يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فسادًا).[١٩]

وعندما يُفسِّر الفخر الرازي هذه الآية الكريمة، يبيِّن أن هذا هو النوع الثاني من قبائح أفعال المنافقين، والكلام فيه من وجوه. أحدها: أن يقال: مَن القائل: لا تفسدوا في الأرض؟ وثانيها: ما الفساد في الأرض؟ وثالثها: مَن القائل: إنما نحن مصلحون؟ ورابعها: ما الصلاح[٢٠]. ثم يقفز الباحث إلى النقطة المهمة هنا، يقول الفخر الرازي في المسألة الثالثة: (الذين قالوا إنما نحن مصلحون هم المنافقون، والأقرب في مرادهم أن يكون نقيضًا لما نُهوا عنه، فلما كان الذي نُهوا عنه هو الإفساد في الأرض كان قولهم (إنما نحن مصلحون) كالمقابل له.

وفضلًا عما تقدم، فقد استفاد الباحث من أبي حيَّان أنَّ له رأيًا آخر يُخالف غيرَه من المفسِّرين والنحويين في بيان وظيفة "إنما"، ويقول : ("إنما" ما صلة لأنَّ[٢١] وتكفُّها عن العمل، فإن ولِيَتْها جملة فعلية كانت مهيَّئة، وفي ألفاظ المتأخرين من النحويين وبعض أهل الأصول أنها للحصر، وكونها مركبة من "ما" النافية دخل عليها "إنَّ" التي للإثبات فأفادت الحصر قول ركيك فاسد صادر عن غير عارف بالنحو، والذي نذهب إليه أنها لا تدل على الحصر بالوضع، كما أن الحصر لا يفهم من أخواتها التي كُفَّت بـ"ما"، فلا فرق بين لعل زيدًا قائم، ولعل ما زيد قائم، فكذلك إنَّ زيدًا قائم وإنما زيدٌ قائم، وإذا فُهم حصر فإنما يفهم من سياق الكلام، لا أنَّ إنما دلَّت عليه، وبهذا الذي قَرَّرْناه يزول الإشكال الذي أَوْرَدُوه في نحو قوله تعالى: ((إِنَّمَا أَنْتَ

[١٩]) انظر : تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت – لبنان، سنة ١٩٦٩م، جـ ١، ص ٥٠

[٢٠]) هكذا ورد في النص، ويرى الباحث لعلها "الإصلاح" – والله أعلم.

[٢١]) هكذا في النص – الهمزة فوق الألف– ، والصواب – مكانها – تحت الألف.

مُنْذِرٌ))[٢٢]، ((قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ))[٢٣]، ((إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَن يَخْشَاهَا))[٢٤]، وإعمال "إنما" قد زعم بعضهم أنه مسموع من لسان العرب، والذي عليه أصحابنا أنه غير مسموع.)[٢٥]ولذلك بعد تتبُّع هذه التعليقات من أبي حيان في تفسيره، يجد الباحث عجبًا؛ لأنه رأى أنَّ "إنما" لا تفيد القصر، ولا فرق بين "أنّ" و"لعل" مِن أخواتها إذا اتصلت بها "ما"، وإذا فُهم الحصر فإنما يُفهم من سياق الكلام.

وقال عبد القاهر الجرجاني توضيحًا لهذه الآية الكريمة: (دخلت "إنما" لتدلَّ على أنهم حين ادَّعَوا لأنفسهم أنهم مصلحون، أظهروا أنهم يدَّعون من ذلك أمرًا ظاهرًا معلومًا، ولذلك أُكِّد الأمر في تكذيبهم والرد عليهم، فجُمِع بين "ألاَ" الذي هو للتنبيه، وبين "إنَّ" الذي هو للتأكيد، فقيل: "ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون".)[٢٦] فيُفهم من كلام الجرجاني أن المنافقين قصروا صفة الإصلاح على أنفسهم ادِّعاءً وكذبًا.

مما سبق يتبين للباحث أنه ليس بغريب أن يؤكِّد بسيوني هذا الرأي ويقول: (وقد تستعمل "إنما" في الأمور التي ينكرها المخاطب ويدفعها تنزيلاً لتلك الأمور منزلة ما لا يجهله المخاطب ولا ينكره، وذلك لغاية بلاغية يقصد إليها ويعمد. ففي مثل هذه الآية الكريمة، تجد أن كون هؤلاء المنافقين مصلحين خبر ينكره المخاطب ويدفعه، فكان حق القصر أن يكون بالنفي والاستثناء: (إن نحن إلا مصلحون) ولكن النظم الكريم آثر التعبير "بإنما" تنزيلاً لهذا الخبر المنكر منزلة الأمر المعلوم الظاهر، فهم يدَّعون أن كونهم مصلحين أمر ظاهر من شأنه ألا يجهله المخاطب ولا ينكره، لأنه من الوضوح بمكان، ولذا جاء الرد عليهم عنيفًا وقاسيًا: (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) فقد بدأ "بألا" الاستفتاحية التي تفيد التنبيه وتهيئة الأذهان لما يلقى

[٢٢]) سورة الرعد: ٧

[٢٣]) سورة فصلت: ٦

[٢٤]) سورة النازعات: ٤٥

[٢٥]) البحر المحيط في التفسير، دار الفكر، طبعة جديدة بعناية: صدقي محمد جميل، سنة ١٩٩٢م، جـ ١، ص ١٩١

[٢٦]) دلائل الإعجاز، ص ٣٥٨

بعدها، ثم جاء قصر الإفساد عليهم بحيث لا يتعداهم إلى غيرهم، وكأنه ليس على وجه الأرض مفسدون سواهم، وأكد ذلك "بإنّ": (ألا إنهم هم المفسدون) ثم جاء هذا الاستدراك (ولكن لا يشعرون) الذي بيَّن أن خفاء تلك الحقيقة عليهم مرَده إلى فقدانهم الشعور، فهم قوم لا يشعرون، ولو كان عندهم قدر من شعور لأدركوا حقيقة انحصار الفساد فيما بينهم وقصره عليهم.)[٢٧]

فلمَّا ننظر إلى هذه الآيات الكريمة، نقول: إن الإصلاح لا يصدر على الراجح من المنافقين إذ إنهم معروفون بالإفساد في الأرض. هذا وقد سبق الدرَّاز قائلاً: (خداع المنافقين رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم – نزَّله منزلةَ مخادعةِ الله، تهديدًا، وتبشيعًا وتأييدًا لرسوله الكريم، ولذا جاء بالمضارع المفيد للدَّيمومة،[٢٨] في قوله تعالى: "وما يخدعون إلا أنفسهم"، وقرئ "وما يخادعون". والمتبادر من الأنفس : الذوات، فالخداع لاصقٌ بهم لا يَعْدُوهم إلى الرسول والمؤمنين، الذين يُطلعهم الله على أحوال المنافقين.)[٢٩]

ورأى الدكتور وهبة الزحيلي أنّ الآية: (إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ) قصر الموصوف على الصفة، أي نحن مصلحون ليس إلا.[٣٠] ويزيد الباحث، فكأنهم قالوا: ليس الأمر كما تزعمون، فإنما نحن مصلحون، لا نبغي إلا الإصلاح، فرد الله عليهم بأنهم وحدهم هم المفسدون، ولكنهم لا يدركون خطورة عملهم، ولا يشعرون بهذا الإفساد، لأنه أصبح غريزة لهم، مركزة في طباعهم.

[٢٧]) علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، جـ٢، ص ٥٧

[٢٨]) يرى الباحث أن السياق يقتضي حرف العطف بالواو مكان الفاصلة، ولكن هكذا ورد النص !

[٢٩]) دكتور صبّاح عبيد دراز، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، مطبعة الأمانة، ط ١، سنة ١٩٨٦م، ص ٣٢

[٣٠]) دكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر – دمشق، ط ١٤١٨هـ جـ ١، ص ٨٣

ثم بيَّن الزحيلي معناها إجمالاً قائلاً: (أي ليس شأننا الإفساد أبدًا، ولا شأنَ لنا إلا الإصلاح، وإنما نحن أناس مصلحون، بعيدون عن شَوائب[٣١] الإفساد، نسعى للخير والصلاح، باتباعنا رؤساءَنا، وهكذا شأن المفسدين في كل زمان، يدَّعون في إفسادهم أنه هو الإصلاح بعينه.)[٣٢]

وأخيرًا، كان من أهم ما كشف عنه الباحث أنَّ صيغة القصر هنا من نوع قصر الصفة على الموصوف أي نحن مصلحون ليس إلاَّ. وقد ذكر الباحث في بيانه على القصر الحقيقي الادعائي أو المجازي سابقًا، تعليقًا على هذه الآية، بأنّ الضمير "نحن" الراجع إلى المنافقين يؤكد أنهم قصروا صفة الإصلاح على أنفسهم ونفوا هذه الصفة عن كل من عداهم، وهذا من قصر الصفة على الموصوف ولذلك، يتضح للباحث أنَّ وظيفة "إنما" في الآية هي إفادة القصر. ويجوز أن يكون من باب قصر الموصوف على صفة الإصلاح، أي أننا لا نفعل شيئًا سوى الإصلاح. والله أعلم.

(٢) قول الله تعالى: ((وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِيْنَ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانَ وَلَـكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّيْنَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ))

موضع القصر : ((إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُر)). بيَّن الزمخشري أنَّ المَلكَين ما يُعلِّمان أحدًا حتى يُنبِّهاه وينصحاه ويقولا له: (إنما نحن فتنة فلا تكفر) : أي ابتلاء واختبار من الله[٣٣]. ومن ذلك يفهم الباحث

[٣١]) (الشائبة) الشيء الغريب يختلط بغيره ويقال ما فيه شائبة ليس فيه شبهة والدنس والقذر ونحوهما (ج) شوائب ويقال فلان بريء من الشوائب ليس فيه ما يعيبه. عن المعجم الوسيط، مادة "شوب"

[٣٢]) دكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي، جـ ١، ص ٨٤

أنَّ الله لم ينزل الملكَين لوظيفة أخرى غير الابتلاء والاختبار لهؤلاء اليهوديين، لتمييز المؤمن بالله حق إيمانه من الكافر.

وفسَّر الألوسي هذه الآية الكريمة قائلاً: (أي ما يعلّم الملكان أحدًا حتى ينصحاه ويقولا له: إنما نحن ابتلاء من الله عزّ وجلّ. فمَن تعلَّم مِنَّا وعمل به كفر، ومَن تعلَّم وتوقَّى ثبت على الإيمان فلا تكفر باعتقاده وجواز العمل به.)[٣٤] إذًا، يتضح للباحث أنه ليس للملكَين واجب آخر غير تعليم السحر. وذكر الألوسي أيضًا أن القصر هنا: (لبيان أنه ليس لهما فيما يتعاطيانه شأن سواها – أي الفتنة – لينصرف الناس عن تعلّمه.)[٣٥] وفي ضوء هذا العرض السريع الموجز، يقول الباحث : إنَّ قول الله تعالى: (إنما نحن فتنة) تتضمن معنى النهي عن الكفر استهزاءًا، وتوكيد لقبول الشرع والتمسك به. وهذا دليل وبرهان على سعة تفسير وتوضيح لكلام الله سبحانه وتعالى.

والبيضاوي أَيَّدَ ووضّح في تفسير: (وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ) على قولين، قائلًا: (فمعناه على الأول ما يعلمان أحدًا حتى ينصحاه ويقولا له إنما نحن ابتلاء من الله، فمن تعلم منا وعمل به كفر، ومن تعلم وتوقَّى عمله ثبت على الإيمان، فلا تكفر باعتقاد جوازه والعمل به. وفيه دليل على أن تعلم السحر وما لا يجوز اتباعه غير محظور، وإنما المنع من اتباعه والعمل به. وعلى الثاني ما يعلمانه حتى يقولا إنما نحن مفتونان فلا تكن مثلنا.)[٣٦]

---

[٣٣]) الزمخشري، جـ ١، ص ٣٠٦

[٣٤]) الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: الشيخ محمد أحمد الأمد والشيخ عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط ١، سنة ١٩٩٩م، جـ ١، ص ٤٦٦

[٣٥]) المصدر نفسه، جـ ١، ص ٤٦٧

[٣٦]) ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط ١، سنة ١٤١٨ هـ، جـ ١، ص ٩٨

وليس من المبالغة أن نقول إنَّ هذا القول الثاني بعيد لعدم ورود خبرٍ بأنَّ المَلَكَين كانا مفتونَين بالسحر، بل الخبر أنهما مبعوثان لتعليم الناس السحر حتى يفُكُّوا به سحر الشياطين، فهو علاج سحرهم، ولذا فإن الفتنة تتمثَّل في أنَّ مَن تعلَّمه يمكنه أن يفكَّ به المسحورين ويعالجهم ويكون عاملاً به في مرضاة الله تعالى، كما يمكنه أن يستعمله في سخط الله تعالى عندما يضرُّ به الأبرياء أو يؤذي به غيرَه. والله أعلم.

وأرى أنَّ هؤلاء المفسرين القدامى اتفقوا وأيَّد بعضهم بعضًا في أن المراد بالفتنة هنا هي الابتلاء والاختبار وليست شيئًا يحصل عنه العذاب. وكذلك المحدثون، فهم لا يختلفون في بيان مراد الفتنة بأنها ابتلاء واختبار. ولتوضيح ذلك، يُنْظَر إلى فكرة الدراز حيث يرى أنَّ المَلَكَين يعلِّمان الناس السحر ابتلاءً واختبارًا للإنسان، وصلابةِ إيمانه في الصراع بين الحق والباطل، وهما ينصحان كلَّ مَن يريد التعلم بأنهما فتنة، وأن مزاولة السحر شرٌّ يؤدي إلى الكفر، وإن ذلك أمر واضح ... ولذا كان القصر بإنما .

وقد وضح الدكتور محمد سيد طنطاوي المقصود من تعليم الملكين للناس السحر فقال: (فَضحُ أمرِ السحرة الذين كَثُروا في تلك الأيام، وادَّعَوا ما لم يأذن به الله، وإظهار الفرق بين المعجزة والسحر حتى يعلم الناس أن هؤلاء السحرة الذين قد يزعمون بِمرور الأيام أنهم أنبياء ليسوا كذلك، وإنما هم أفَّاكون، وأخبروا على أنفسهم بطريق القصر بأنهم فتنة للمبالغة في الإقرار بأنهما لا يملكان نفعًا ولا ضرًّا لأحد، وإنما هما فتنة محضة، وابتلاء من الله لعباده لتمييز المطيع من العاصي.)[٣٧] ومما توصلتُ إليه في هذا التوضيح أن الدكتور محمد سيد طنطاوي رأى أن هذا التعليم مجرد فتنة واختبار من الله تعالى.

وأرى أن ظاهر الآية الكريمة الأمر الذي لا شك ولا جدال فيه أنَّ الملكَين – هاروت وماروت – قصَّرا نفسَيهما على الفتنة دون الخير، ولكن المقصود من قولهما (إنما نحن) أي إنما تعلمنا السحر، فليس المقصود

[٣٧]) انظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، جـ ١، ص ٢٢٩

أنهما هما فتنة، وإنما تعليمهما السحر هو الفتنة لِمَن تعلَّمه منهما. فنوع القصر باعتبار طرفيه هنا قصر الموصوف على الصفة، وهو قصر حقيقيّ. والمقصور ضمير "نحن" يعود إلى الملكَين. وأما المقصور عليه هو "الفتنة". فأداة "إنما" في هذه الآية تفيد إثبات الملكَين لتعليم السحر، ونفيه عن غيرهما دفعةً واحدة.

(٣) قول الله تعالى: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)).

موضع القصر: ((إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)) . ذكر صاحب الكشاف أنَّ هذه الآية بيان لوجوب الانتهاء عن اتباع الشيطان وظهور عداوته، أي: لا يأمركم بخير قط إنما يأمركم بالقبيح، وما يتجاوز الحد في القبح من العظائم وهو قولكم: هذا حلال وهذا حرام، بغير علم، ويدخل فيه كل ما يضاف إلى الله تعالى مِمَّا لا يجوز عليه[٣٨]. وهنا نقول: إنَّ الشيطان كما هو معروف من غرائزه الخاصة الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، فمجيء "إنما" هنا لتأكيد شيء معروف ولقصر أعمال الشيطان أي إنّه لن يدلَّنا على الخير بل يدلَّنا على الشيء القبيح فقط.

وبيَّن ابن عاشور قول الله تعالى: (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء) استئناف بياني لقوله: إنه لكم عدو مبين، فيئُول إلى كونه علةً للعلة، إذ يسأل السامع عن ثبوت العداوة مع عدم سبق المعرفة ومع بُعد ما بَيْنَنا وبينه فقيل إنما يأمركم أي لأنه لا يأمركم إلا بالسوء إلخ أي يُحَسِّنُ لكم ما فيه مَضرَّتُكم لأنَّ عداوته أمر خفي عرفناه من آثار أفعاله. والأمر في الآية مجاز عن الوسوسة والتزيين إذ لا يسمع أحد صيغ أمر من الشيطان. ولك أن تجعل جملة: إنما يأمركم تمثيلية بتشبيه حاله وحالهم في التسويل والوسوسة وفي تَلَقِّيهم.)[٣٩]

[٣٨]) الزمخشري، جـ ١، ص ٣٥٦

[٣٩]) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، جـ ٢، ص ١٠٤

ويمكن لنا أن نقول بصورة عامة: إنَّ الشيطان يستطيع أن يُزَيِّن ويُجمِّل الأُمور المذمومة كأنها محمودة، بل حينما يقوم المؤمن إلى الصلاةَ يأتي إليه الشيطان ويُوَسوِس له، وحينما يعمل المؤمن الصالحات يأتي الشيطان ليغرز في قلب المؤمنِ الرياءَ والسمعة، ويُزيِّن في أعيُن المؤمنين الأعمال السيِّئة بأنها الأعمال الحسنة، وما إلى ذلك من أعماله الباطلة الكاذبة.

وقال نظام الدين الحسن النيسابوري: (السوء متناول جميع المعاصي من أفعال الجوارح وأفعال القلوب، والفحشاء هي التي جاوزت الحد في القبح، فلهذا قد تحقق الأول بما لم يجب فيه الحد، والثاني بما يجب فيه الحد، (وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ) وهذا أقبح الكل؛ لأنَّ وصْفَ الله تعالى بما لا ينبغي من أعظم الكبائر، فهذه الآية كالتفسير لقوله (وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ)، والصغائر والكبائر والكفر والجهل كلها من مأمورات الشيطان، بل لا يأمر الشيطان إلا بهذه الأمور بدليل "إنما" وهي للحصر، وقد يدعو الشيطان إلى الخير ظاهرًا، وغرضه أن يجرَّه إلى الشر آخرًا مثلُ أن يجرَّه من الأفضل إلى الفاضل، فيتمكن بعد ذلك أن يجرَّه إلى الشر. ومثل أن يجرَّه من الفاضل السهل إلى الأفضل الأشق ليصير ازدياد المشقة سببًا لتنفره عن الطاعة.)[٤٠]

وهذا ما أيَّده أبو حفص سراج الدين عُمر حينما يفسِّر هذه الآية قائلًا: (دلَّت الآية على أنَّ الشيطان لا يأمر إلا بالقبائح؛ لأنَّ الله تعالى ذكره بكلمة "إنَّمَا" وهي للحصر.) [٤١] قال سيد قطب في تفسير هذه الآية

[٤٠]) نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلميه – بيروت، ط ١، سنة ١٤١٦ هـ، جـ ١، ص ٤٦٥

[٤١]) أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، اللباب في علوم الكتاب، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت/لبنان، ط ١، سنة ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م، جـ٣، ص ١٥٦

الكريمة: (أي: الشيطان لا يأمر الإنسان إلا بالسوء والفحشاء، وإلا بالتجديف[٤٢] على الله، والافتراء عليه، دون تثبّت ولا يقين !)[٤٣]

هنا نؤيد كلام سيد قطب في تفسيره لهذه الآية حيث إنه استخدم طريق النفي والاستثناء حينما يقول: (الشيطان لا يأمر الإنسان إلا بالسوء والفحشاء) لبيان معنى "إنما". فيلاحظ الباحث في واقع الأمر كأنَّ سيد قطب يرى أنَّ طريق النفي والاستثناء هو الطريق المناسب لتفسير وظيفة "إنما".

ونلاحظ أنَّ نوع القصر هنا باعتبار طرفيه قصر الصفة على الموصوف أي أن الله سبحانه وتعالى قصَّر وأثبت على الشيطان صفة الإغرار والكيد حيث أنه يأمر الناس بالسوء والفحشاء والقول على الله بلا علم، بمعنى أنَّ الشيطان ليس له أمر سوى الأمر بالمنكر، ويستحيل أن يصدر منه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فنوع القصر باعتبار طرفيه هنا قصر الموصوف على الصفة، أي قصر الموصوف وهو الأمر من الشيطان على الصفة أي الأمر بالسوء والفحشاء والقول على الله بلا علم، فالشيطان لا يأمر بغير السوء والفحشاء.

(٤) قول الله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُم وَاشْكُرُوا للهِ إن كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ. إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ))

موضع القصر : ((إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ)) وجدير بالذكر أن هذه الآية الكريمة التي هي في سورة البقرة شبيهة بآية أخرى في سورة النحل إلا أنهما تختلفان في تقديم

[٤٢]) التجديف هو الكفر بالله، ومنه قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (لا تجدفوا بنعمة الله) أي لا تكفروا بها، كما في المعجم الوسيط مادة "جدف"

[٤٣]) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، المجلد الأول، ١٩٧٢، ص ١٥٥

وتأخير حرف الجر والضمير (به) حيث قال الله تعالى في سورة النحل: ((إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ))[٤٤]

قال القرطبي في تفسيره عن "إنما" : " إنها كلمة موضوعة للحصر تتضمن النفي والإثبات، فتثبت ما تناوله الخطاب وتنفي ما عداه، وقد حصرت ها هنا التحريم، لا سيَّما وقد جاءت عقيب التحليل في قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُم)) فأفادت الإباحة على الإطلاق، ثم عقبها بذكر المحرَّم بكلمة "إنما" الحاصرة.[٤٥]

ونرى من هاتَين الآيتين، أن الله – سبحانه وتعالى – لم يذكر ما الطيِّبات، وتركها عمومًا أي نكَّر كلمة "طيِّبات"، ثم جاء التحريم بكلمة "إنما"، فهذا بيان وإيضاح على أنَّ المُحلَّلات أكثر من المحرَّمات.

قال ابن عاشور تفسيرًا لهذه الآية الكريمة إنها: (استئنافٌ بيانيٌّ، ذلك أنَّ الإذن بأكل الطيبات يُثير سؤالَ من يسأل ما هي الطيبات، فجاء هذا الاستئناف مبيِّنًا المحرَّمات وهي أضداد الطيبات، لتُعرفَ الطيباتُ بطريق المضادة المستفادة من صيغة الحصر، وإنما سلك طريقَ بيانِ ضدِّ الطيبات للاختصار فإن المحرمات قليلة، ولأنَّ في هذا الحصر تعريضًا بالمشركين الذين حرَّموا على أنفسهم كثيرًا من الطيبات وأحلُّوا الميتة والدم، ولما كان القصر هنا حقيقيًّا لأن المخاطب به هم المؤمنون وهم لا يعتقدون خلافَ ما يُشرِعُ لهم، لم يكن في هذا القصر قلبُ اعتقادِ أحدٍ، وإنما حَصل الردُّ به على المشركين بطريقة التعريض[٤٦]. و"إنما" بمعنى ما وإلا أي ما حَرَّمَ عليكم إلا الميتة وما عُطِف عليها، ومعلوم من المقام أن المقصود ما حَرَّمَ من المأكولات.)[٤٧]

[٤٤]) سورة النحل: ١١٥

[٤٥]) القرطبي، جـ ٢، ص ١٩١

[٤٦]) خلاف التصريح، إنه اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي.

[٤٧]) ابن عاشور، جـ ٢، ص ١١٥

فيتضح لنا أن ابن عاشور رأى أن وظيفة "إنما" في هذه الآية الكريمة لتبيِّن عكس الطيبات التي ذُكرت في الآية التي قبلها، ولتوضِّح أن المحرَّمات من الأكل ليست بكثيرة. ويتضح أيضًا أنَّ ابن عاشور ذكر مصطلح "الحصر" تارة، ومصطلح "القصر" تارةً في فقرة واحدة. ولذلك نؤكد مرة أخرى أن هذين المصطلحَين لا يَدُلَّان على مدلولَين مختلفَين بل على نفس المدلول.

روى عبد القاهر الجرجاني عن أبي إسحاق الزجاج قولَه في قوله تعالى: (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ) النصب في "المَيتة" هو القراءة، ويجوز : "إنما حُرِّمَ عليكم". قال أبو إسحاق: والذي أختاره أن تكون "ما" هي التي تمنع "إنّ" من العمل، ويكون المعنى: "ما حَرَّم عليكم إلا الميتةَ"؛ لأن "إنما" تأتي إثباتًا لما يُذكر بعدها، ونفيًا لما سواه.[٤٨] وقد وافقه سعد الدين التفتازاني في هذا الأمر حيث إنَّ "ما" في "إنما" ليست هي النافية على ما توهمه بعض الأصوليين حيث استدلوا على إفادته القصر بأنّ "إنَّ" للإثبات و"ما" للنفي، ولا يجوز أن يكونا لإثبات ما بعده ونفيه، بل يجب أن يكونا لإثبات ما بعده ونفي ما سواه أو على العكس، والثاني باطل بالإجماع، فتعيَّن الأول وهو معنى القصر.[٤٩]

وقد جعل القزويني قول الله تعالى: (إنما حرَّم عليكم الميتةَ والدَّمَ) بالنصب، دليلاً على أنّ "إنما" تفيد القصر لكونها متضمِّنة معنى (ما وإلا) أي: ما حرَّم عليكم إلا الميتة، ثم شرحها الصعيدي بقوله: (لا يخفى أن دلالة "إنما" على القصر بالوضع، فلا يُحتاج إلى دليل في دلالتها عليه، وإنما جعلها متضمنةً معنى (ما وإلا)، ولم يجعلها مرادفةً لهما.)[٥٠]

[٤٨]) عبد القاهر الجرجاني، ص ٣٢٨

[٤٩]) المطول، ص ٢١٢

[٥٠]) نقلًا عن بغية الإيضاح، جـ ١، ص ٢٣١

وأما الدكتور وهبة الزحيلي يقول في إعراب هذه الآية الكريمة: (إنما كافة، وإنما تجيء في الكلام لإثبات المذكور ونفي ما سواه)[٥١] وهذا عين القصر، أي لإثبات أن المحرَّمات من الطعام هي الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أُهل لغير الله به، ونفي عن الطعام التي لم تُذكر هنا. وقال أيضًا: (وحصر التحريم في هذه الأصناف مستفاد من قوله تعالى: (إِنَّما حَرَّمَ..) أي لم يحرم عليكم إلا الميتة وتوابعها، لأنَّ إِنَّما تفيد الحصر، تثبت ما تناوله الكلام وتنفي ما عداه. وقد حصرت هنا التحريم، لا سيَّما وقد جاءت عقب التحليل: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ.)[٥٢]

وعلى الجانب الآخر نجد أن أبا حيَّان له رأي آخر يُخالف غيرَه من المفسِّرين والنحويين في بيان وظيفة "إنما"، حيث إنَّ "ما" صلة لِـ "إنَّ" وتكفُّها عن العمل، فإن ولِيَتْها جملة فعلية كانت مهيَّئة، وفي ألفاظ المتأخرين من النحويين وبعض أهل الأصول أنها للحصر، ... وأبو حيَّان ذهب إلى أنها لا تدل على الحصر بالوضع، كما أن الحصر لا يفهم من أخواتها التي كُفَّت بـ"ما"[٥٣]. وقد وضَّح الدكتور بسيوني هذا الأمر بأنَّ دلالة "إنما" على القصر دلالة وضعية، وعلى الرغم من ذلك لم يفت البلاغيون أن يتحدثوا عن وجه دلالتها على القصر، فقد ذكروا أنها تدل على القصر لتضمنها معنى (ما وإلا). ففي هذه الآية مثلاً، ذكر بسيوني أن المفسرين الذين يحتج بهم في اللغة كابن عباس ومجاهد ونحوهما من الصحابة والتابعين، أن المعنى بالنصب: "ما حرَّم عليكم إلا الميتة" وهو المطابق لقراءة الرفع حيث يفاد القصر في هذه القراءة بتعريف الطرفين، فالآية فيها ثلاث قراءات وكلها تفيد القصر، القراءة الأولى (إنما حرَّم عليكم الميتةُ)، بناء "حرَّم" للمعلوم رفع "الميتةُ" وعلى هذه القراءة تكون "ما" اسم موصول وعائده محذوف، والمعنى: إنَّ الذي حرَّمه عليكم هو الميتة، وهو قصر للتحريم على الميتة وما بعدها وطريق القصر تعريف الطرفين. والقراءة الثانية: (إنما حُرِّم عليكم الميتةُ) ببناء "حرَّم" للمفعول ورفع الميتة، وعلى هذه القراءة، فـ"ما" إما اسم موصول والمعنى: إنَّ الذي حُرِّم عليكم هو الميتة، وإما كافَّة لإنَّ والمعنى: ما حُرِّم عليكم إلا الميتة، وهذا قصر أيضًا للتحريم على الميتة وما تلاها وطريقه تعريف الطرفين في الأول وإنما في الثاني، والقراءة الثالثة: (إنما حرَّم عليكم الميتةَ) ببناء "حرم" للفاعل ونصب

[٥١]) تفسير المنير، جـ ٢، ص ٧٧

[٥٢]) التفسير المنير، جـ ٢، ص ٧٩

[٥٣]) البحر المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، جـ ١، ص ٦٦٠

"الميتة" فما كافة لإنَّ، والمعنى: ما حرم عليكم إلا الميتة، فهو قصر طريقه إنما. فقال بسيوني: (وبهذا يتضح لك تطابق القراءات الثلاث في إفادة القصر، سواء كانت "ما" كافة لإنَّ أو موصولة.)[٥٤]

وأما الدكتور محمد عبد الرحيم الهبيل ، فقد رأى أنَّ التعبير بالقصر يحوي معانيَ عدةً منها المدح والهجاء والتعريض والتوكيد والمبالغة، ولكن من خصائصه إذا نصَّ على المدح لا يذكر التعريض بالنص ... وإذا عرض للمحرمات كما في هذه الآية يحصرها ويعددها دون أن يذكر الحلال لأنه أصل.[٥٥]

وهنا نلاحظ أن الأمر يكون واضحًا عندما يقول سعد الدين: (إنما كان "إنما" مفيدًا للقصر لتضمنه معنى "ما" و"إلا").[٥٦] وإذا كان هناك شيء غير واضح أو يحتاج إلى بيان فنستطيع أن نقول إن المعنى هنا هو: "ما حرّم الله عليكم إلا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله"، أي المحرَّمات علينا من الأكل أو الطعام ليست بكثيرة بل محددة ومقصورة على هذه الأشياء فقط. ولذلك يبدو للباحث أنَّ نوع القصر باعتبار طرفيه هنا قصر الصفة على الموصوف، أي قصر التحريم على هذه الأشياء. ولا شك أنّ نوعه باعتبار الواقع حقيقيٌّ.

(٥) قول الله تعالى: ((كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِيْنَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ. فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ))

موضع القصر في الآية: ((فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ)) وقد ورد في تفسير الطبري : هذا في الوصية مَن بدَّلها من بعد ما سمعها، فإنما إثمه على مَن بدَّله.[٥٧] فالكلام هنا واضح، أي إثم تبديل الوصية لن يقع على غير مُبدِّليها. وقد رأى ابن عاشور أن القصر في قول الله تعالى: (فإنما إثمه) إضافي، لنفي الإثم عن الموصي، وإلا فإن إثمه أيضًا يكون على الذي يأخذ ما يجعله له الموصي مع علمه إذا حاباه[٥٨] منفذ الوصية أو الحاكم فإن الحكم لا يُحِلُّ حرامًا، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فمَن قَضيتُ له بحق أخيه فإنما أقتَطِعُ له قطعةً من نار)، وقال ابن عاشور: (إنما انتفى الإثم عن الموصي لأنه استبرأ لنفسه حين أوصى

[٥٤]) علم المعاني، جـ ٢، ص ٣٥

[٥٥]) تجليات الجمال في أسلوب القصر، ص ٧

[٥٦]) المطول، ص ٢١٢

[٥٧]) تفسير الطبري، جـ ٢، ص ١٢٣

[٥٨]) يعني فضَّله على غيره بالزيادة

بالمعروف، فلا وزر عليه في مخالفة الناس بعده لِما أوصى به، إذ لا تزر وازرة وزرَ أخرى . . والمقصود من هذا القصر إبطالُ تعلُّلِ بعضِ الناس بترك الوصية بعلةِ خيفةِ ألا يُنفِّذَها المَوكولُ إليهم تنفيذُها، أي فعليكم بالإيصاء ووجوبُ التنفيذ متعيِّنٌ على ناظر الوصية فإنْ بدَّله فعليه إثمُه، وقد دلَّ قولُه: (فإنما إثمه على الذين يبدلونه) أي هذا التبديل يمنعه الشرع ويضربُ ولاةُ الأمور على يد مَن يحاول هذا التبديلَ لأن الإثم لا يُقرر شرعًا.)[٥٩]

وقال أبو حيان الأندلسي في تفسيره هذه الآية الكريمة: ("فَإِنَّمَا إِثْمُهُ" ضمير عائد على الإيصاء المبدَّل، أو على المصدر المفهوم مِن "بدَّله"، أي فإنما إثم التبديل على المبدِّل، وفي هذا دليل على أنَّ مَن اقترف ذنبًا فإنما وباله[٦٠] عليه خاصة، فإنَّ قصر الوصي في شيء مما أوصى به الميت لم يلحق الميت من ذلك شيء.)[٦١]

وقد أكَّده الدكتور محمد سيد طنطاوي حينما يبيِّن معنى الآية قائلًا: (فمَن غيَّر الإيصاء الذي أوصى به المتوفى عن وجهه، بعدما عَلمه وتحققه منه، فإنما إثم ذلك التغيير في الإيصاء يقع على عاتق هذا المبدل، لأنه بهذا التبديل قد خان الأمانة، وخالف شريعة الله، ولن يلحق الموصي شيئ من الإثم لأنه قد أدى ما عليه بفعله للوصية كما يريدها الله تعالى.)[٦٢] وقد ذكر الدكتور وهبة الزحيلي أنَّ مَن غيَّر الإيصاء من شاهد ووصيٍّ بعد سماعه، فإنما ذنب هذا التغيير عليه، وبرئت منه ذمة الموصي، وثبت له الأجر عند ربه.[٦٣]

ولذلك، يتضح للباحث من قول الدكتور الزحيلي "وبَرئت منه ذمة الموصي" أن الموصي ليس له علاقة بهذا الذنب، بل ذنب هذا التغيير يقع على مغيِّر الإيصاء فقط لا على غيره، ولذا استُخدمت كلمة "إنما". ولا عجب في ذلك فالدكتور بسيوني يقول: (المراد أن مَن بدَّل الوصية وحرَّفها وغيَّر حكمها، فالإثم واقع عليه وحده، والله سبحانه وتعالى مُطَّلع عليه وكاشفٌ أمرَه، وواضح أن القصر في الآية قصر صفة الإثم أو العقاب على الذين يُبدِّلون، قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًا تحقيقيًّا.)[٦٤]

---

[٥٩]) التحرير والتنوير، جـ ٢، ص ١٥٢

[٦٠]) (الوبال) الفساد والشدة والثقل وسوء العاقبة وفي التنزيل العزيز {فذاقت وبال أمرها}. عن المعجم الوسيط، مادة "وبل".

[٦١]) البحر المحيط، جـ ٢، ص ٢٦

[٦٢]) التفسير الوسيط، جـ ١، ص ٣٧٧

[٦٣]) تفسير المنير، جـ ٢، ص ١١٩

[٦٤]) علم المعاني، ص ٣٨

ويستخلص الباحث مما تقدم أنَّ هذه الآية تحتوي على أسلوب القصر، ونوعه باعتبار طرفيه قصر الصفة على الموصوف، أي قصر الإثم على الذين يبدِّلون حكم الوصية، ويميل الباحث إلى رأي ابن عاشور في نوع القصر هنا باعتبار الواقع قصرًا إضافيًّا، أي أن يختص الإثم بالذين يبدِّلون حكم الوصية بالنسبة إلى الموصي، أي بالإضافة إليه، لا يتجاوز الإثم إلى ذلك الموصي بحيث يتقرر أيضًا أن الموصى له الذي يأخذ أكثر من حقه محاباة من المبدل وهو عالم بذلك فإنه يشترك في الإثم مع المبدل وربما يعدُّ مبدلًا معه يخرج من كونه الموصى له إلى كونه مبدل.

النتائج

فبعد التحليل للنماذج المعروضة في هذا البحث، يخلص الباحث من كل ذلك إلى أن:

١) أسلوب القصر بطريق "إنما" له دور كبير في فهم معاني القرآن الكريم.

٢) الإعجاز البلاغي لأسلوب القصر إعجاز عظيم لا يقع في حصر... بل واسع.

٣) ليس وجود أداة من أدوات القصر يعني أنها تؤدي هذا الدور بل أحيانًا يمتنع القصر بالرغم من وجود أدواته.

٤) كان لأسلوب القصر سمةٌ أسلوبية بالغة الأثر في معرفة خواص تراكيب الكلام، وتصوِّر ما عليه كلام الله من سائر المعاني والمدلولات.

٥) استطاع القصر بطريق "إنما" أن يخاطب العقل والوِجدانَ في آنٍ واحد.

المصادر والمراجع:

١) أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، اللباب في علوم الكتاب، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت/لبنان، ط ١، سنة ١٤١٩ هـ –١٩٩٨م.

٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط ٣، سنة ١٩٦٨هـ.

٣) أبو حيَّان الأندلسي الغرناطي، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر، طبعة جديدة بعناية: صدقي محمد جميل، سنة ١٩٩٢م.

٤) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت – لبنان، سنة ١٩٦٩م.

٦) الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: الشيخ محمد أحمد الأمد والشيخ عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط ١، سنة ١٩٩٩م.

٧) إنعام نوّال عكّاوي، المعجم المفصل في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، ط ٢، سنة ١٩٩٦م.

٨) بسيوني عبد الفتاح فيود، دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، مؤسسة المختار ودار المعالم الثقافية، ط ١، سنة ١٩٩٨.

٩) تامر سلوم، في مجلة التراث العربي – دمشق، الموضوع: ظاهرة "القصر" في كشاف الزمخشري، ع ٦٤، سنة ١٩٩٦م.

١٠) التفتازاني (سعد الدين) الهِروي،كتاب المطوّل في شرح تلخيص المفتاح، المكتبة الأزهرية للتراث، سنة ١٣٣٠هـ.

١١) الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي – بيروت، ط ٣، سنة ١٤٠٧هـ.

١٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، المجلد الأول، ١٩٧٢.

١٣) صبّاح عبيد دراز، أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، مطبعة الأمانة، ط١، سنة ١٩٨٦م.

١٤) عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، ط ١٧، سنة ٢٠٠٥م.

١٥) عبد المتعال الصعيدي، البلاغة العالية (علم المعاني)، قدَّم له وراجعه وأعدَّ فهارسه: دكتور عبد القادر حسين، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، ط ٢، سنة ١٩٩١م.

١٦) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، التعليق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط ٥، سنة ٢٠٠٤م.

١٧) عبد الرحيم محمد الهبيل، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية)، الموضوع: تجليات الجمال في أسلوب القصر، العدد الثاني، يونيو ٢٠١١م.

١٨) عبده عبد العزيز القلقيلة، البلاغة الاصطلاحية، دار الفكر العربي، ط ٣، سنة ١٩٩٢م.

١٩) الفخر الرازي، مفاتح الغيب أو التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط ٣، سنة ١٤٢٠.

٢٠) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي، تقديم: هاني الحاج تفسير القرطبي، المكتبة التوفيقية.

٢١) محمد سيّد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار السعادة .

٢٢) ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط ١، سنة ١٤١٨ هـ.

٢٣) نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلميه – بيروت، ط ١، سنة ١٤١٦ هـ.

٢٤) وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر – دمشق، ط ١٤١٨هـ.